دويٌّ الهمـــــس
The sound of a whisper

«يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ»

{القلم: ٤٣}

«وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ»

{فاطر: ٣٧}

دَوِيُّ الهَمْسِ

لقد غَشِيَنا الموتُ زمناً طويلاً، ألا تُسقطُ السماءُ بماءِ الحياةِ بَعْدُ ..؟! قالَ الأمواتُ لبعضِهم ليلاً في مقابرِ القرية .

وما إن انتهوا مِن مقولتهم إذ تُغدقُ السماءُ بالأمطارِعلى قبورِهم؛ فتشققتْ وخرجوا كما ولدتهم أمهاتُهم، رؤوسُهم بيضاءُ، أجسادُهم داكنةٌ واهنةٌ، لا ينظرون إلى عوراتِهم، فالظلامُ حالكٌ وما هم فيه أكبرُ، أصواتُهم تقربُهم مِن بعضهُم البَعض، يتصافحونَ ويتساءلون .

ليسَ بينهم غنيٌ وفقيرٌ، ولا قويٌ وضعيفٌ، ولاتُوجدُ لهم مناصبٌ وألقابٌ، لهُم أعمالٌ فقط، أجسادُهم رُكِّبتْ على عِظامٍ منذُ لحظاتٍ كانتْ متفرقةً باليةً نَخِرةً ..

إذا تحدَّثَ مُتحدِّثٌ سُمِعَ لَهُ، وإذا حَزِنَ حَزينٌ فالكلُ يحزنُ لَهُ، وإذا فَرِحَ سعيدٌ فرحوا وسَعِدوا له، قانونُهم واحدٌ، وكلامُهُم صِدقٌ، وما هم فيه، لا تدليسَ فيهِ ولا مُراوغة، إنَّهَا الحقيقةُ الواضحة .

فجأةً .. يَسمَعونَ أصواتاً غريبةً آتيةً عليهم، وقناديلَ مُشتعلةً بضوءٍ خافتٍ، وصندوقاً مستطيلاً يألفونَهُ جَيداً، يُحمَلُ على الأكتاف، وهاهم يدخلون أرضَ المِيعادِ؛ فتدثروا في قبورهم خَوفاً من أضواءِ القناديلِ الباهتةِ، وأنْ تُفتضَحَ أخبارُهُم وتُنتهكَ أسرارُهُم، ويُكتشفَ زيفُهم وخداعُهم الذي كانوا عليه ..

أُلقِيَ ما في الصندوقِ تحتَ الأرضِ، وقَفَلَ مَن جاءوا بهِ إلى بيوتِهم ومخادعِهم؛ فخرجوا وافترشُوا الرَّمَالَ، بحلَقُوا في بعضِهم، هَيْئتُهُم غَريبةٌ، مَحاجرُعُيونِهم فارغةٌ وخاوية، أسنانُهم مَصفوفةٌ ومدببةٌ، عظامُ صدورِهم تُعَدُ، أصابعُهم عُقَلٌ عُقَلٌ، تساءَلوا تراشَقوا تكابَروا .

قال واحدٌ : كنتُ قاضياً، وقال آخرُ: كنتُ عُمدةً، وقال ثالثٌ : كُنتُ شيْخاً، وقال رابعُهم : كُنتُ شحاذاً، وقال الخامس: كُنتُ طبالاً .. وأختي كانت راقصةً .. وأمي جاءتْ بي سِفاحاً ، فهل لي بمقامكم مجلسٌ، وقال

آخرُ: كُنتُ كذَّاباً ولا يعرفُونَني إلا بالصِّدقِ، كنتُ أسرقُهم ليلاً وأواسيهم نهاراً.

وجاء من شقَّ الجمعَ الغفيرَ، وقال : أما أنا لا أكذبكم، سرقتُ خروفاً لجارٍ لنا، كنتُ مُعجباً بقرونهِ وانتقيتُهُ من بين الخِراف لقرونه الطويلة، جاء معي فهو ينطحني منذ جئتُ ديارَكم .. ليتني سرقتُ النعجةَ العرجاء العمياء التي لا قرونَ لها .. انظروا إلى عظامي فهي مُكسَّرةٌ، غيرَ أنكم تعرفون بأنَّها صارت نَخِرةً .. ضحِكوا جميعاً .

وقال الآخرُ : كانت أمي راقصةً وكنتُ أتنعمُ بمالها، فقبري يطفحُ بالقيحِ والصَّدِيدِ، إن لم تُصدقوني اذهبوا وأروه .. وأنصحُكُم أن تَسِدُّوا أنوفَكم أولاً .. وقال .. وقال .. وقال آخرُ: أنا كنتُ صَادِقاً، وأنتَ كنتَ كَاذباً، وأنتَ الآخرُ كُنتَ مُنافقاً، وظلُّوا على هذه الاعترافات الصادقة، نعم .. « الموتى لا يكذبون ..!»

وَجِيء بحديث العهد وسألوه :

كيف جئتَ ؟ ومن جاءَ معكَ ؟ وكيف كانت أمُكَ ؟

قال : كانت أمّي عاهرةً، وجاءت بي سِفاحاً .. فمنذ أن وطِئْتُ أرضَكُم، رجلان اسمهما مُنكرٌ ونكيرٌ يُجلساني ويَرْسُفانِي بسلاسلٍ من لهبٍ ونارٍ، كلُّ واحدٍ يشدُ من ناحيةٍ، ويشبعاني ضرباً ورَكْلاً بمقامعَ من نار، حتى جئتم وأخرجتموني بعدما نفَّضتُ التُّرابَ عن وجهي .

قالوا : إذنْ كُلُنَا من أصحاب النَّار، ليس فينا من يكونُ في الجنان .. انتصف الليلُ ولم نقمْ سُرادِقاً لحديث العهدِ، تطوع أصحابُ المهن فأقاموا سرادقاً كبيراً يَسَعُ لجميع الأموات، وقرأ الشيخُ واكتظتْ الطُرقاتُ، وجلس الجالسونَ وشنَّفوا آذانَهم للقاريْ .

قالوا : ما أجملَ القرآن ! ما أحسن البيان ! ليتنا اتبعناه فكنا من أصحاب الجِنان، انفضَّ المُعَزُّونَ ولم يبقَ سوى أصحاب المناصب يساومونَ ويناقشونَ ويتفلسفونَ ويتغامزونَ ويتلامزونَ ويتفاخرونَ ويتشاتمونَ ويتصارخونَ ويتضاربونَ ويتقاتلونَ، بعدما نهَشوا لحمَ الميتِ القادم، وتركوهُ عظاماً متفرقةً نخِرَةً .

بينما هم في تداخُلٍ ودويّ كدَوِيّ النَّحلِ؛ تُشرقُ الشمسُ على قبورٍ تملَؤُها عظامٌ نخِرةٌ وجماجمُ مُتفرقةٌ .. !!